

الشيخ نجم الدين داية المتوفى ٦٥٣هـ وأساليبه في تفسيره

"بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني"

☆ الأستاذ الدكتور المحافظ عبد الرحيم

☆☆ الدكتور سيد مقليل حسين

Abstract

In this article, a life sketch of Sheikh Najmuddin Abdullah Bin Muhammad Al Asadi known as Daya and an introduction of his book "Tafseer Bahrul Haqaeq wal maani Fi Tafseer il Sabil Mathani" is given. He was a great Scholar, Muhaddis, Muffassrr, Hafiz -Quran, and a good poet too. He was also great source of spiritual inspiration. He was one of the special devotees of Sheikh Najmuddin Kubra. This above mentioned tafseer comes in the category of Ashaari Tafser. This article tells about the Characteristics and Method of Bahrul haqaeq walma'ani fi tafseer al sabia al-masani. The Features of Tafseer Bahrul haqaeq interpreted in terms of style and integrated processing three-dimensional (Scientific, Mystical and Symbolic). The style of this tafseer resembles with styles of Sheik Najmuddin Kubra in "At tawilat an Najmiya and Al-Qushairi's style in his tafseer "Lataef-ul-Isharat" This Tafseer of Najmuddin Daya is totally matchless when it comes to Lataef, Isharat and explanation of Secrets of Quraan.

الحمد لله الذي خلق الإنسان وعلمه البيان والحمد لله الذي أنزل القرآن هداية للناس ومرجعاً لهم في جميع حاجاتهم ومشاكلهم وبينات من الهدى والفرقان، ويصلي على نبيه وصفيه حبيبه محمد مصطفى سيد الأولين والآخرين وأشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وعترته المتفرعين من نبعته وأصحابه المنتجبين۔

أما بعد فإن علم التفسير أشرف العلوم وأعز من سائر الفنون لأن موضوعه كلام الله تعالى الذي هو ينبوع كل حكمة وإدراك المسائل الفقهية رأس المباني وأماها۔ وإنما اشدد الحاجة إليه لأن كل كمال ديني أو دنيوي لا بد من أن يكون موافقاً للشرع وموافقة تتوقف على العلم بكتاب الله۔ قد تنفت أكثر الناس من أهل العلم والمعرفة في كل عصر من العصور على تفكير وتدبر معاني القرآن وتوجهوا نحو التفسير على وجه الشريعة تصنيفاً وتأليفاً۔

كان كتاب "بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني" أجلاً ما صنف في هذا الباب من مؤلفات نخبة أولي الألباب العارف "الشيخ نجم الدين عبد الله بن محمد الأسدي الشهير بداية" المتوفى ٦٥٤هـ، يُعد هذا

☆ رئيس قسم اللغة العربية، جامعة بهاء الدين زكريا ملتان۔

☆☆ باحث مترجم

الكتاب من أهم الكتب التفسير الإشاري وفي بيان الإشارات والرموز القرآنية لا ثمانية له.

التعريف بالمفسر:

هو الشيخ نجم الدين عبدالله بن محمد بن شاهاور بن أنوشروان الأسدي الرازي المعروف بنجم الدين

داية. كان محدثاً حافظاً، وصوفياً، شاعراً وُلد في بلاد خوارزم سنة ٥٦٤هـ - (١)

كان مقيماً ببلاد خوارزم ثم خرج عنها في أيام غزو جنكيز خان لبلاد الروم. ويقال: إنه استشهد في تلك

الحروب (٢)

من مشايخه الشيخ نجم الدين الكبير، صدر الدين القونوي وأبو الحنان البكري. (٣) توفي نجم الدين

داية ببغداد سنة ٦٥٤هـ و دُفن فيه (٤)

آثاره:

قد ترك عدداً كبيراً من المؤلفات أبرزها كتابه الذي ألفه في تفسير القرآن الكريم وسماه "بحر الحقائق

والمعاني في تفسير السبع المثاني" وله أكثر من مائة رباعية شعرية بالفارسية بعنوان "التمثل" (٥)

من مؤلفاته أخرى:

كشف الحقائق و شرح الدقائق

معيان الصدق في مصداق العشق

منارات السائرين ذكر فيه انه التمس منه بعض أصحابه تأليف كتاب في شرح مقامات العارفين شاملاً

لكرامات الساكين جامعاً لمنازل السائرين واني وان كنت قد صنف قبل هذا بنيف و ثلاثين سنة كتاب مرصاد العباد

ولكنه مؤلف بالعجمية وقد حرم من فوائده اهل العربية فأردت ان يكون هذا مؤلف بالعربية وجعله على فاتحة و

خاتمة ووضع للمقامات عشرة أبواب (٦)

مرصاد العباد من المبدأ إلى المعاد مطبوعة فارسي جعله على خمسة أبواب فيها أربعون فصلاً كلها في

السلوك والوصول وتربية النفس أتمه في أول رجب سنة ٦٢٠ عشرين و ستمائة ببلدة سيواس الباب الأول في

ديباجة الكتاب والثاني في المبدأ والثالث في المعاش والرابع في المعاد والخامس في السلوك والطوائف المختلفة

وترجمه قاسم بن محمود القراحصاري في عصر السلطان مراد بن محمد خان وسماه "ارشاد المريدين إلى المراد

في ترجمة مرصاد العباد" (٧)

منهج الشيخ في تفسيره:

"بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني"

سار الشيخ نجم الدين داية في تفسيره على منهج معين و هو تناول الآيات آية اية دون أن يتخلى عن أي واحدة إلا نادراً، ثم يشير إلى ما تنطوي عليه من إشارة خفية أو معنى لطيف وربما ذكر اللفظة واللفظين من الآية. وهكذا إيراد الشعر الذي يدل على مواجيد الصوفية وأحوالهم ومعانيهم سواء أكان هذا الشعر للصوفية أم كان لغيرهم، ويذكر الأحاديث المناسبة بمقام شرح بعض الآيات ويربط بين الآي بعضها ببعض. و ذلك بأسلوب متين والسهل ولا يتكلف التعقيد، إنه يأخذ من الآيات ما يعتقد أنها تتضمنه على سبيل الإشارة والإيحاء إليه من المعاني التي يستسيغها العقل ويحد فيها الصوفي ما يتفق مع نزعتة وإشراق كلام الله في قلبه بشتى المعاني والإيماءات.

من خصائص التفسير:

من الناحية الروحية والسلوكية يشتمل هذا التفسير على كثير من الإرشادات والتنبيهات والدروس التربوية الدقيقة، ويتميز هذا الكتاب بما يلي:

١- تفسير القرآن بالقرآن:

يفسر الشيخ القرآن بالقرآن والقرآن يفسر بعضه بعضا بمعنى أنه يورد مصطلحات قرآنية في تفسير كلمة من الكلمات الواردة في القرآن، وفي ذلك هو ذهب مذهب التفسير الرمزي وإشاري كما نجد في التفسير مثلا:

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢)

تحقيقه أن الماء هو القرآن، و ثمراته: الهدى والتقوى والنور والرحمة والشفاء والبركة واليمن والسعادة والقربة والحق واليقين والنجاح والرفعة والصلاح والفلاح والحكمة والموعظة والحلم والعلم والآداب والأخلاق والعزة، والغنى والتمسك بالعروة الوثقى والاعتصام بحبل الله المتين وإجماع كل خير وختام سعادة وزهوق باطل الوجود الإنساني عند مجيء تجلي حقيقة الصفات الربانية كقوله تعالى: ﴿جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء: ٨١)، فأخرج بماء القرآن هذه الثمرات من أرض قلوب عباده فكما أن الله من على عباده بإخراج الثمرات وقال: ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢) وكان للحيوانات فيها رزق بتبعية الإنسان كما قال: ﴿مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ (النازعات: ٣٣)

فهذا إن كلمة (الماء) تم اعتبارها كرمز يرمز إلى القرآن بما ينتج من نزوله من الثمرات المعنوية المذكورة أعلاه.

۲۔ تفسیر القرآن بالأحادیث النبویة:

یفسر المؤلف القرآن بالأحادیث النبویة، و تقدم نماذج من تفسیره بهذا الخصوص مثلاً: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَحَآهُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (البقرة: ۸)، إشارة إلى أهل الغفلة والنسيان من المسلمين یظنون أنهم مؤمنون حقاً وإنما هم یؤمنون حقاً وإنما هم یؤمنون باللسان والتقليد وهم یحسبون أنهم آمنوا بالتحقیق، فما هم بمؤمنین حقيقة بل هم مسلمون كما قال تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ (الحجرات: ۱۴) والإيمان الحقيقي نور إذا دخل القلب فیظهر على المؤمن حقيقة، كما یتضح مما جرى فی قصة حارثة لما سأله رسولا لله: "كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟" قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ: "انْظُرْ مَا تَقُولُ إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيْمَانِكَ؟" قَالَ: عَزَلْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِئًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغُونَ فِيهَا، قَالَ: يَا حَارِثَةُ، عَرَفْتَ فَالْزَمْ"۔ (۸)

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِؤُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (البقرة: ۱۴، ۱۵) والإشارة فی تحقيق الآيتين أن المنافقين كما أرادوا أن یجمعوا بين عشرة الكفار و صبة المسلمين وأن یجمعوا بين مفسد الكفر ومصلح الإيمان، فكان الجمع بين الضدين غير جائز، فبقوا بين الباب والدار كقوله تعالى: ﴿مَذْذَبَيْنِ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾ (النساء: ۱۴۳)، وكذلك حال المتمنين الذين يدعون الإرادة ولا يخرجون عند العادة ويريدون الجمع بين مقاصد الدارين يتمنون إلى مراتب الدين، ويرتعون في أسفل مراتب الدنيا فلا يلتزم لهم ذلك والمكاتب مابقي عليه درهم وإذا أقبل الليل من حيث أدبر النهار من هاهنا وقال النبي: "لَيْسَ الدِّينُ بِالتَّعْنِي" (۹) وقال: "بُعِثْتُ لِرَفْعِ الْعَادَاتِ وَدَفْعِ الشَّهَوَاتِ" (۱۰)، وقال: "الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ ضَرْتَانِ فَمَنْ يُدْعِ الْجَمْعَ بَيْنَهُمَا فَمَمْكُورٌ وَمَفْرُورٌ" (۱۱)، ومن يدعي الجمع بينهما فمفرور، ومن كان له في كل ناحية خليط وفي كل زاوية من قلبه ريبط كان نهبا للطوارق یتتابه كل قوم و ينزل في قلبه كل رفقة فقلبه أبداً خراب إلا أنه لا يعبس وتتغير أساير وجهه ولا يتطرق إلى مزاجه طيش فيخرج عن حد الاعتدال۔

وهكذا يتناول أقوال المشايخ من كبار الصوفية وأعلامهم وأشعار شعراء العرب في تفسیره، يعتمد الشیخ على استنبطان النص من حيث هو خطاب أيضاً للعارفين الذين یجدون وراء كل لفظ من ألفاظه دلالة خفية یجدها العارف بالذوق والإشارة۔

السّمات البارزة لتفسير بحر الحقائق من حيث أسلوب والمعالجة المتكاملة الثلاثية الأبعاد

أسلوب بحر الحقائق ---

إن أسلوب تفسير بحر الحقائق أسلوب شمولي ثلاثي الأبعاد بمعنى أنه يشتمل على ثلاثة أساليب وهي الأسلوب العلمي والأسلوب العرفاني والأسلوب الرمزي - الإشاري - وما إلى ذلك قد "إنطلق" فيه المؤلف، كما يتضح من تسمية تفسيره بـ (بحر الحقائق)، من ظاهر الكلمات والعبارات الوجودية (existential realities). لقد قسّم الفيلسوف الألماني عما نويل كانت (Kant) الوجود (existence) إلى قسمين هما (الف) القسم بمعنى الظواهر (phenomena) وهي ما يظهر للحواس من الأشياء، و (ب) القسم بمعنى البواطن (numina) وهي الأشياء كما هي (thing in themselves). لقد ذهب عما نويل كانت إلى القول بأن الإنسان لا يمكنه الأشياء كما هي أي ماهية الأشياء إلاّ ظواهرها المحسوسة في الزمان والمكان.

واشتهر هذا المذهب الفكري عند الفلاسفة باسم الظواهرية أو علم الظواهر (phenomenology) وعلى هذا الأساس أنكر عما نويل كانت علم ما وراء الطبيعة (metaphysic) والذي تناوله الفيلسوف الألماني الآخر هيغل (Hegel) بالنقد اللاذع، لا سيّما في كتابه "علم ظواهر الروح" (phenomenology of spirit).

إن هذا المذهب الفلسفي الظاهري يتنافى مع روح القرآن الكريم الذي يدعو الإنسان كرامة بعد مرة إلى آياته الكون (cosmos) بالتدبر والتفكير والتعقل وإلى سبر أغوار الأشياء، كما يعلمنا النبي بكونه يدعو الله: "اللَّهُمَّ أَرِنَا الْأَشْيَاءَ كَمَا هِيَ" - (١٢)

لقد بنى صاحب تفسير بحر الحقائق تفسيره على هذا التعليم النبوي من إلتماس "حقائق الأشياء" بعكس التمسك بظواهرها - بناءً على ذلك هو تبنّى في تفسيره أسلوب (التحقيق) بدلاً من أسلوب (التقليد)، كما هو يقسم الإيمان إلى قسمين: الإيمان بالتحقيق والإيمان بالتقليد.

هو يعرف الإيمان الحقيقي بأنه "نور إذا دخل القلب فيظهر على المؤمن حقيقة"، وذلك بالإشارة إلى ما جرى بـ (حارثة) من قصة إذ سأله النبي: "كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثَةُ؟" قَالَ: أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، قَالَ: "أَنْظُرْ مَا تَقُولُ إِنَّ لِكُلِّ حَقٍّ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟" قَالَ: عَزَزْتُ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَكَانَنِي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَانَنِي

أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْحَنَةِ يَتَرَاوِرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغُونَ فِيهَا، قَالَ: "يَا حَارِثُ، عَرَفْتُ فَالْزَمْ" (۱۳)۔

إن تفسیر بحر الحقائق یرکز علی مُرَبِّع ذات الله سبحانه وتعالی والنفس البشرية والكون (universe) والسلوك الخُلُقِي المبني علی معرفة الله ذاتاً وصفاتاً ومعرفة الكون مع التدبیر والتفكر في خلق الله وتركیة النفس وتربيتها۔ وإن التفسیر الرباعي الأبعاد بهذا الصفة قد یدخل في مضمار ما یسمی حديثاً بالأسلوب الأنتولوجي (ontological stlye)۔

هناك مذهب من مذاهب علم النفس (psychology) یسمی فی اصلاح علماء النفس علم النفس الكلّي أو سيكولوجيا الكلّ (gestalt psychology) الذي یعرفه منیر البعلبكي بأنه "دراسة الإدراك والسلوك من زاوية انسجابه الكائن الحيّ ليوحدات أو صُور متكاملة مع التأكيد علی تطابق الأحداث السيکولوجية، ورفض تحليل المنبهات (stimuli) والمدركات (sense data) والاستجابات (responses) إلى عناصر متناثرة (۱۴)۔

إن تفسیر بحر الحقائق قد ذهب فيه صاحبه إلى تنبي هذا الأسلوب الكلّي الشمولي بمعنى إعتبار الآيات القرآنية وحدةً صُوريّة ومعنوية أي من ناحية الشكل (form) والمحتوى (content) وإعتبار أفراد النوعي البشري وحدةً إنسانية وإعتبار ظواهر الكون (universe) والطبيعة (nature) وحدةً تكوينية ثم إعتبار هذه الوحدات الثلاثية وحدةً وجودية متكاملة متجانسة بمعنى كونهن عبارة عن "شجرة الكون" علی حدّ تعبير ابن عربي۔

ثم یصرح صاحب تفسیر بحر الحقائق بأن هناك الظاهرة والباطن فی آیات (القرآن الحكيم) التي يدرك معانيها الناس علی قدر عقولهم، لا سیما فيما يتعلق بالمحکمات والمتشابهات من آیات القرآن۔ التقسيم الثنوي الذي یصرح القرآن الحكيم نفسه، كما یصرح بأن ما تشابه من آیات هو ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّسِيخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ۷]۔

یُحَدِّثُ الْمُؤَلِّفُ قَدْ يَظُنُّهُ أَنَّ تَحْقِيقَاتِهِ تَدُلُّ "عَلَى إِبْطَالِ مَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ ظَاهِرِ الْآيَةِ وَإِبْطَالِ مَا فَسَّرَ بِهِ الْعُلَمَاءُ وَالْكَبَرَاءُ مِنَ الْمَعَانِي الظَّاهِرَةِ حَاشَا وَكَلَّا"۔ وذلك بالإشارة إلى ما قال النبي: "إِنَّ لِلْقُرْآنِ ظَهْرًا وَبَطْنًا" (۱۵)۔ فظاهره يدل علی ما ذهب إليه العلماء فی تفسیرهم، وأما ما باطنه فيدل علی ما ذهب إليه أهل التحقيق فی تحقیقاتهم مذهباً مشروطاً بالتوافق والتطابق مع (الكتاب والسنة) الشاهدين علیهِ بالحق وإلا فكل "حقیقة" غير مستنده إلى هذين الأصلين من الشريعة فهي إلحاد وزندقه (۱۶)۔

ما یرتفع من دراسة تفسیر بحر الحقائق هو إن القرآن الحكيم بمنزلة كتاب النظرية الإلهية (Manual

(of Divine Theory) الذي يقتضي ويتطلب تصديقه على أساس العملية المختبرية من التجربة / الإختبار (Experimentation) والملاحظة (Observation) - العملية التجريبية (Empirical process) التي تكون عند صاحب تفسير بحر الحقائق ، عبارة عن الإيمان بالغيب، وهي نُكْتة تفسيرية عجبية وغريبة خاصة بأسلوب تفسيره يأتي شرحها في الفصل الثاني (من هذا الباب) من ضمن مباحثه -

التفسير العلمي والمعرفي / العرفاني والرمزي - الإشاري المستفاد منه النُكت العلمية والعرفانية ونظرية (العلم والمعرفة) الشمولية

إن أسلوب تفسير بحر الحقائق متميز بكونه جامعاً بين أساليب أي أسلوب علمي، وأسلوب عرفاني، وأسلوب إشاري / رمزي كما ذهب إليه نخبة من الصوفية -

أما الأسلوب العلمي فيتبع فيه صاحب تفسير بحر الحقائق ما يستلزم من شروط التفسير العلمي كتفسير ظاهر اللفظ في سياقه في ضوء علم النحو وعلم المعاني (Semantic)، وإن هذا الأسلوب التفسيري الثلاثي الأبعاد يسري في جميع تفسيره، لا سيما في تفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة، الذي نحن بصدد البحث العلمي والنقدي فيه - كذلك هو لم ترك ما ذكر آنفاً من الحديث النبوي إلا وهو شرحه مزيداً بالإشارة إلى الحديث النبوي الآخر يقول فيه النبي: "مَنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ شَبْرًا تَقَرَّبَ اللَّهُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَمَنْ تَقَرَّبَ إِلَيْهِ ذِرَاعًا تَقَرَّبَ إِلَيْهِ بَاعًا" (١٧) الذي يشرح في ضوئه صاحب تفسير بحر الحقائق (الإخلاص) بالإشارة إلى مفهومه التطبيقي (pragmatic concept) ويقول إن (الإخلاص) عبارة عن تخلص العبد من رق عبودية الغير مما سوى الله بإخراجه من ظلمات متراكمة من هوى النفس وتعلق الروح والقلب بغير الحق إلى نور الوجدانية وشهود الفردانية (١٨) -

وكذلك عند ما يورد صاحب تفسير بحر الحقائق الآيات القرآنية من سورة البقرة: [الْم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ]، فإنه يقوم بإيجاد نُكت عجبية وغريبة خاصة بنظرية المعروفة الماورائية (MetaphysicsI epistemology) ما يدل على الإتجاه العلمي لأسلوب تفسيره القرآني، وكما استفاد مما روي في الأخبار: "أن جبريل لما نزل بقوله تعالى: ﴿كَهَيْعِص﴾ [مريم: ١]، فلما قال: "كاف" قال النبي "علمت"، فقال: "ها" فقال: "علمت"، فقال: "عين" فقال: "علمت"، فقال: "صاد" فقال: "علمت"، فقال: "جبريل كيف علمت ما لم أعلم" (١٩)، وهو يفيد بإيراد هذا الخبر أن الحروف المقطعات والآيات المتشابهات التي يعسر ويصعب أو يتعذر فهمها على غير الراسخين في العلم هي واضحة جلياً ومعلومة تماماً لدى النبي -

(ب) الأسلوب الرمزي / الإشاري: إن مؤلف تفسير بحر الحقائق كما يمشي مع طبيعة تسمية تفسيره ببحر

الحقائق قد ذهب في تفسيره القرآني مذهب التفسير الرمزي والإشاري على نحو عجيب وغريب لا يدل فقط على خصوصية ذهنه من ناحية الملكات الخارقة العادة من التفكير والتخيل والوجدان الحدسي والوهم والتحليل العلمي، بل يؤدي به إلى إثارة هذه الملكات في القارئ - الظاهرة التي تظهر في قيمتها وذروتها في تفسير العبارات القرآنية تفسيراً رمزياً وإشارياً كما يتضح مما يلي من الملاحظات الإجمالية:

ومن هذه الناحية فإن تفسير بحر الحقائق ليس تفسيراً أحادي الجانب، بل هو تفسير شمولي وجامع، وفي ذلك هو سبق غيره من التفاسير السابقة والمعاصرة واللاحقة إلى أسلوب المعالجة المتكاملة (interdisciplinary method) الذي قد أصبح متداولاً في منهجية البحث العلمي الحديث، ومن خصائص هذه المنهجية أنها تفرض على الباحث أن لا يقتصر على الدراسة في مجال واحد، بل يتخطى ويتعدى إلى أن يقوم بالدراسة في المجالات المختلفة والميادين المتنوعة على نحو أن تصبح الدراسة عنده دراسة مقارنة ومفارقة (Comparative and contrastive study) وإن هذه الميزة من أهم ميزات تفسير بحر الحقائق فهو في ذلك تفسير منفرد وحيد من نوعه.

من المناسب أن يُلقى الضوء على كل من هذه الأساليب الثلاثة أي الأسلوب العلمي، والأسلوب العرفاني، والأسلوب الإشاري/الرمزي، وذلك بما يلزم من الشرح الإجمالي كما يلي:

(الف) الأسلوب العلمي: إن المراد بالأسلوب العلمي هنا ما ذهب إليه المؤلف وبنى عليه من نظرية المعرفة (epistemology) المستفاد من منهج الوحي القرآني - المنهج الاستقرائي (inductive method) المبني على المبدأين: الملاحظة (observation) والتجربة/الاختبار (experimentation) مثلاً إن صاحب تفسير بحر الحقائق يعرف (الإنسان) بأنه نفس وقلب وروح وسرّ.

ثم هو يعرف (النفس) بأنها دنيوية بمعنى أنها تهوي الدنيا وما فيها من اللذات والشهوات والزخارف، ويعرف (القلب) بأنه أخروي بمعنى أنه يهوي الحنة وما فيها من النعيم، ويعرف (الروح) بأنه قربي بمعنى أنه يحب القرية والعندية والدنو من مصدره أي (مَقْعِدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُقْتَدِرٍ)، ويعرف (السرّ) بأنه سرّ "حضرتي" بمعنى أنه يحب حضرة الربوبية، وهي مرتبة (الإخلاص) الذي يشرحه النبيّ بأنه سرّ بين الله وبين عبده لا يسعه فيه ملك مقرب ولا نبي مرسل - وهكذا يشرح كل مصطلح من المصطلحات القرآنية بما ورد في القرآن من مصطلحات أخرى.

لقد فسر صاحب (تفسير بحر الحقائق) العبارات القرآنية (١) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ (طه: ١٠) (٢) ﴿إِنِّي أَنَسْتُ نَارًا﴾ (طه: ١٠)، (٣) ﴿لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدَ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طه: ١٠)، ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ

شَاطِي الْوَادِي الْأَيْمَنِ) (القصص: ٣٠)، (٤) ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ (القصص: ٣٠)، (٥) ﴿أَنْ يَا مُوسَى﴾ (القصص: ٣٠)، بما يلي من العبارات على الترتيب: (١) الروح والجسم، (٢) حضائر القدس، (٣) القلب، (٤) السر، (٥) المحب المشتاق.

لقد جمع المؤلف في تفسيره بين التفسير الرمزي، الإشاري والتحليل اللغوي على نحو يدل به على نُكت علمية و عرفانية عجيبة وغريبة، مثلاً في تفسير الآية القرآنية: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ (الضحى: ٧)، هو يأخذ كلمة الضال بمعنى الذي كان ضالاً في تيه العدم قبل وجوده.

وإن الضلالة في هذا السياق من الآية لا يعني الضلالة بمعنى الانحراف عن جادة الحق أو الصراط المستقيم، بل بمعنى غياب الشيء أثناء مرحلة من مراحل وجوده في غياهب حُبِّ العدم، وذلك يعني غيابه عن مسرح الشهود خلف ستار العدم، وهو يستدل على هذا المعنى العميق والدقيق بملاحظة لغوية لقول قائل: "ضل الماء في البن" أي غاب الماء فيه، وإن الهداية في هذا السياق من الآية إخراج الشيء من ظلمة العدم إلى نور الوجود، وبصدد هذا الإفادة المعنوية أشار المؤلف إلى حديث النبي: "إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فِي ظُلْمَةٍ ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ مِنْ ذَلِكَ النُّورِ اهْتَدَى وَمَنْ أَخْطَاهُ ضَلَّ" (٢٠)، ونتيجة لهذا الرشّ النوري على الخلق المحجوب بحجابات الظلمة خراجوا إلى نور الشهود فإن الضلالة في هذا السياق من الآية، كما سبق القول، لا تغني إلا بقاء الشيء في كتم ظلمة حجاب العدم.

وعلى هذا الأساس فإن كلمتي (الهداية) و (الضلالة) ظاهر تان عمليتان من السير الوجودي والشهودي، وبذلك هما متعلقتان بقضية إنسانية حتمية من الفناء والبقاء. فإن الضلالة في هذا المسيرة الوجودية بمرحلة الفناء، بينما الهداية فيها تتعلق بمنزلة البقاء، نظراً إلى هذا التفسير فإن الضلالة والهداية من أهم المصطلحات الوجودية القرآنية. ومما يهم من ناحية نظرية العلم (epistemology) أن مؤلف بحر الحقائق بصدد تفسير الآية: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ...﴾ (البقرة: ٣)، يقسم الهداية إلى ثلاثة أقسام: الهداية العامة، والهداية الخاصة، والهداية المتعلقة بأخص الخواص.

فإن الهداية العامة ما يخصُّ هداية عامة الناس بالإسلام والإيمان، وإن الهداية الخاصة ما يخصُّ هداية خاصة الناس بالإيقان والإحسان، وأما الهداية المتعلقة بأخص الخواص من الناس فهي ما يتم (كشف المحب والمجاهدة العيان) بذف إتقاء المهتدي عن نفسه بربه.

هو يمضي في تفسير هذه الآية من هذه الوجهة المعرفية، ويعرف (الغيب) بأنه: نور غيبي من الله في

قلوب المستمعين نظروا إلى قول محمد فآمنوا به كمال قال: "الْمُؤْمِنُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ" (٢١)۔

هو يقسم الغيب إلى غيبين هما: (١) غيب غاب من العبد، و (ب) غيب غاب العبد عنه، فالذي غاب عنه هو "عالم الأرواح" الذي كان حاضراً له حينما كان موجوداً فيه بروحه و كذرة وجوده في عهد (السُّتِ بِرَبِّكُمْ)۔ وقد أشاره المؤلف هنا إلى نُكْتة مهمة جداً، وهي نُكْتة علمية لا تخفى أهميتها على المتخصصين في العلم، لا سيما علم الوراثة (Genetics)، وذلك بذكر ذرة الوجود الإنساني في عهد (السُّتِ بِرَبِّكُمْ)، وإن هذه الذرة هي بمنزلة DNA (Deoxyribonucleic Acid)، وهي سلالة من الحامض الخلوي الأكسيجوني، الكاربوني يحمل كل ما ينطوي عليه من الشخص البشري من الموروث من بداية خلقه إلى نهاية مرحلة أطواره وأدواره، النُكْتة التي قلّما قد ينتبه إليها دارس تفسير بحر الحقائق، وأغرب من ذلك ما يقول المؤلف بصدد الحديث في شرح هذه النُكْتة أن العبد عند ما استمع الخطاب الرباني الذي رزّ في قبة عالم الأرواح طالع آثار الربوبية وشاهد الملائكة وتعرف على أرواح الأنبياء والأولياء، فغاب ذلك المشهد عنه عند تعلقه بعالم (القالب)، ونظر بالحواس الخمسة إلى المحسوسات من عالم الأجسام۔

معنى ذلك أن المشهد الذي كان ماثلاً وحاضراً وموجوداً أمامه في عالم الأرواح، غاب عنه بعد ما نزل إلى عالم الأجسام، فكل ما كان عالماً و عارفاً به أصبح جاهلاً عنه ولذلك سُمّي الإنسان لأنه نَسِيَ عهد (السُّتِ بِرَبِّكُمْ) كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ (طه: ١١٥)، ولذلك لقد عرف الله تعالى القرآن الحكيم بانه: ذكر وتذكروا وبصرة ﴿لَمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ (ق: ٣٧)، كما عرف رسوله بانه: "مُذَكِّرٌ" لاسيما في الآية المباركة: ﴿فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى﴾ (الأعلى: ٩) وأيضاً في الآيتين: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ﴾ (الغاشية: ٢١) و ﴿لَسْتُ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾ (الغاشية: ٢٢) وأما الغيب الذي غاب عنه الإنسان فهو (غيب الغيب)، وهو حضرة الربوبية التي قد غاب عنها العبد من وجودها وتوابعها معها أينما كان وفي كل زمان ومكان، كما يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ (الحديد: ٤)، وأيضاً: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ (ق: ١٦)۔ وكذلك يشير المؤلف إلى أن للإيمان مراتب، فإن المرتبة الأولى: تصديق القلب بحقائق الغيب بلا ريب على ما روى علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه قال: قال رسول الله: "الإيمان معرفة بالقلب، وإقرار باللسان، وعمل بالأركان"۔ (٢٢)، فإن ذلك تصديق للإيمان فمهم جداً من حاية نظرية المعرفة (epistemology) وفلسفة المذهب العملي (pragmatics) و علم النفس اللغوي (psycho-linguistics)، وهناك حديث من هذا القبيل من العجائب والغرائب رواه أيضاً

الإمام علي ابن أبي طالب كرم الله وجهه قال: قال رسول الله: "الإيمان قول مقول وعمل معمول وعرفان بالعقول وإتباع الرسول" (۲۳)۔ وفي ضوء هذا الحديث الدقيق المعنى والعميق المغزى والبعيد المرمى واللطيف الفحوى فإن الإيمان رباعي الأبعاد بمعنى أنه قول وفعل ومعرفة وإتباع الرسول۔

والمرتبة الثانية من الإيمان فهي عبارة عن الإيمان بغيب الغيب، والذي ينقسم بدوره إلى مرتبتين هما: (۱) تخلص القلب بالنور الغيبي الرباني عن العلائق الجسمانية والحبب النفسانية والصفات الحيوانية، ففي هذه المرتبة الثانية يهتدي العبد إلى عالم الأرواح كما كان في أول الهدى ويوم الميثاق۔

وتنحى لذلك الإهتمام وتلك العودة إلى الأصل فإنه لا يبقى الغيب الروحاني عنده غيباً ويصير حضوراً وشهوداً لارتفاع الحجب من أمامه كما يشير المؤلف إلى قول الله تعالى في الآية: ﴿وَمَنْ يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ (التغابن: ۱۱) أي من يؤمن بنور الله يهتد إلى الله فيشاهد بقلبه ما كان يشاهد بروحه في عالم الأرواح وما كانت (الذرة) تشاهد يوم الميثاق، فيسمع من خطاب الرب ما كانت (الذرة) تسمع، ويتنور بنور تنورت الذرة به، ويتنسم من "نفحات الطاف الحق" ما كانت (الذرة) تنسمت به منها۔

بناءً على كل هذا المقدمات فإن الإيمان الغيبي، كما يستطرد المؤلف قائلاً، يصير عيناً إلى أن يكتب الله تعالى (الإيمان) في قلبه بنور (غيب الغيب) حسبما قال الله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ﴾ (المجادلة: ۲۲)۔

(ب) وأما المرتبة الثانية الفرعية فهي عبارة عن الإيمان بالغيب الذي هوية ذات الله سبحانه وتعالى بمعنى حقيقة التي مرتبة (غيب الغيب) لا يعلمها إلا الله، يقول المؤلف مستطرداً إنه لا يتم الإيمان بهذه المرتبة من (غيب الغيب) إلا بقدر غيبوبة أنانية العبد بمشاهدة الغيب وبعبارة أخرى إن غيبوبة الأنانية بمعنى إزالة حجاب كثافة الصفات البشرية الحيوانية شرط ضروري لحصول (الإيمان بالغيب) بمعنى مشاهدة هوية ذات الله سبحانه وتعالى وحقيقتها۔

إن الغيب، كما يعرفه صاحب تفسير بحر الحقائق، ما لا يدركه العبد بحواسه الخمس الظاهرة، بل يدركه الخمس الباطنة وهي: العقل والقلب والسر والروح الخفي۔ الموقف الاستقرائي الماورائي الذي يستفاد منه نظرية العلم الماوراء الطبيعي (Epsistemology metaphysical) يستدل عليها المؤلف بالآية القرآنية: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ (التوبة: ۹۴)، حيث تكون (الشهادة) التي عبارة عما يدركه الإنسان بحواسه الخمس: السمع والبصر والشم والذوق واللمس۔

خلاصة البحث:

نستخلص مما سبق من البحث من حصيلته أن تفسير بحر الحقائق قد تبين في مؤلفه أسلوباً علمياً متميزاً مبنياً على الجمع بين العلم والمعرفة والإستقراء الجامع بينهما والمستفاد منه نظرية (العلم) الشمولية الإستقرائية والماورانية التي تحري روحها في جميع تفسيره من بداية إلى النهاية، وهذه الميزة التي قلما توجد في غيره من التفاسير.

الهوامش

- ١- كحاله، عمر رضا، معجم المؤلفين: ١٢٢/٦، دار إحياء التراث العربي بيروت لبنان.
- ٢- معجم تفاسير القرآن الكريم، أعده مجموعة من الباحثين: ٣١٣ منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، إيسيسكو ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- ٣- المصدر نفسه: ٣١٣.
- الموقع: <http://alsalhen.zaghost.info> D 28-10-10
- ٤- البغدادي، إسماعيل باشا، هدية العارفين: ٤٦١/٥، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، الزركلي، خير الدين، الأعلام: ١٢٥/٤.
- دار لعلم للملايين بيروت لبنان، معجم المؤلفين: ١٢٢/٦، المصدر السابق.
- ٥- المصدر نفسه: ٣١٣.
- الموقع: <http://alsalhen.zaghost.info> D 28-10-10
- ٦- حاجي خليفه، مصطفى بن عبدالله، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: ١٨٢٣/٢، دار الفكر بيروت لبنان ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.
- ٧- كشف الظنون: ١٦٥٥/٢، المصدر السابق.
- ٨- أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" برقم: ٣٣٦٧ عن حارث بن مالك، تحقيق: حمدي بن عبدالمجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية القاهرة، ط: ٢.
- والبيهقي في "شعب الإيمان" برقم: ١٠١٠٦ عن حارث بن مالك، تحقيق: عبدعلي عبدالحميد، الدكتور، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض، ط: ١- ١٤٢٣هـ.
- ٩- حقي، إسماعيل بن مصطفى الإستانبولي: أبو الفداء، روح البيان: ٦٣/١، دار الفكر بيروت، السمعاني، منصور بن محمد بن عبدالحبار المروزي، أبو المظفر، تفسير القرآن للسمعاني: ٤٨٢/١، دار الوطن الرياض السعودية، ط: ١- ١٤١٨هـ.
- ١٠- روح البيان: ٦٣/١، المصدر السابق، النسيابوري، نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي، تفسير النسيابوري غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ٤٩٢/١، دار الكتب العلمية بيروت، ط: ١- ١٤١٦هـ.
- ١١- روح البيان: ٦٣/١، المصدر السابق.
- ١٢- الرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين، تفسير الرازي مفاتيح الغيب: ٣٧/١٣، دار إحياء التراث العربي بيروت، ط: ٣- ١٤٢٠هـ، روح البيان: ٨٥/١، المصدر السابق.
- ١٣- قد سبق تخريجه برقم: ٨.

- ١٤- البعلبكي، منير البعلبكي: قاموس المورد: ٣٨٦، دار العلم للملايين بيروت، ١٩٧٨.
- ١٥- روح البيان: ٢٨٩/١، المصدر السابق، الغزالي، محمد، أبو حامد، إحياء علوم الدين: ٦١/٢، دار المعرفة بيروت.
- ١٦- مخطوط بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني، ص: ٣١.
- ١٧- أخرجه البخاري في "الصحيح" برقم: ٧٥٣٦ عن أنس، تحقيق: الناصر، محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط: ١- ١٤٢٢ هـ، والمسلم في "الصحيح" برقم: ٢٠- (٢٦٧٥) عن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي بيروت.
- ١٨- مخطوطة بحر الحقائق والمعاني في تفسير السبع المثاني، ص: ٦.
- ١٩- تفسير روح البيان: ٢٨/١، المصدر السابق.
- ٢٠- تفسير الرازي: ٤٧٩/١٢، المصدر السابق، تفسير روح البيان: ٢٣/١، المصدر السابق.
- ٢١- أخرجه الترمذي في "السنن" برقم: ١٣٢٧ عن أبي سعيد الخدري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، محمد فؤاد عبد الباقي، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، ط: ٢- ١٣٩٥ هـ.
- ٢٢- أخرجه ابن ماجه في "السنن" برقم: ٦٥ عن علي ابن أبي طالب، تحقيق: محمد محيى الدين، المكتبة العصرية صيدا بيروت، والبيهقي في "شعب الايمان" برقم: ١٦ عن علي ابن أبي طالب، المصدر السابق.
- ٢٣- الثعلبي، أحمد بن محمد بن ابراهيم، أبو اسحاق، الكشف والبيان عن تفسير القرآن: ١٤٧/١، تحقيق: أبي محمد بن عاشور دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط: ١- ١٤٢٢ هـ.